

الوقف العلمي في وادي ميزاب - جمعية الحياة التربوية نموذجاً -

أ.د. محمد صالح حمدي

كلية العلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة 1

ecohamdi@gmail.com



ملخص البحث

كشفت هذه المداخلة جوانب من مجالات الوقف العلمي كونه سمة من سمات الحضارة الإسلامية، ومعلم من معالمها عبر تاريخها، كما تحدّثت عن أهميته في الشهود الثقافي والاجتماعي والديني، وعدّدت من خلال ذلك أهمّ المرافق التي تعنى بالوقف العلمي، وقد عرض الباحث في هذه المداخلة نشأة الوقف العلمي في وادي ميزاب حيث تجلّى ذلك في إنشاء جمعيات خيرية منها جمعية "الحياة التربوية" والتي مثل بها الباحث وجعلها كنموذج لهذه الدراسة، فتكلّم عن ظروف نشأتها وعن فروعها وهيكلها العام وعن مرافقها، ثمّ عرض بعض الإحصائيات الخاصة بنشاطها ووظيفتها ورسالتها، كما تمّت الإشارة إلى بعض تدابير تسيير الوقف وتنميته في رؤية هذه الجمعية محلّ الدراسة.

مقدمة

الوقف سمة من سمات الحضارة الإسلامية، ومعلم من معالم التاريخ الإسلامي المشرق، بدأت نواته الأولى على يد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بوقف الحوائط السبع التي تبرع بها أحد أئمة اليهود، وتوجيهه عليه السلام للصحابي عمر بن الخطاب في كيفية استخدام أمواله التي أصابها في خيبر. ثم بدأ في التوسع في عهد الصحابة حتى قيل أنه لم يبق صحابي إلا وأوقف جزءاً من ثروته في سبيل الله.

وإذا كان غرض الوقف بدأ في الجوانب الدينية والإنسانية والاجتماعية، حيث كانت الموارد شحيحة والحاجات الضرورية ملحة، إلا أنه توسع إلى الجوانب الأخرى مع توسع وتنوع الحاجات وتوفر الأموال وتدققها في العهود الزاهرة للإسلام، فشمل الوقف على الرعاية الاجتماعية والتعليم والرعاية الصحية وسائر الخدمات، بل وحتى الرعاية الحيوانية، فغطت تلك الحاجات المتنوعة من موارد هامة، فاستغنت هذه المرافق عن تمويل الدولة واستقلت بمواردها الخاصة.

ومن أهم المرافق التي لقيت عناية خاصة الوقف العلمي، فقد عرف توسعا وتنوعا وظهرت مؤسساته وساهمت في دفع الحركة العلمية، فتسارع الأغنياء وذو الفضل إلى وقف أموالهم على مختلف الهيئات والمؤسسات التربوية بدءا بحلق العلم في المساجد إلى إنشاء المدارس والمعاهد المستقلة وإقامة المكتبات ودعم البحث العلمي، ففي هذه الورقة حاولتُ إلقاء الضوء على جهود الرجال المخلصين على تربية النشء على الأسس والبادئ الدينية والخلقية وترسيخ التعليم القرآني بتسييل أموالهم وإنشاء المؤسسات الوقفية التي ترصد أموالها لهذا الغرض التربوي العلمي، واخترت نموذجا لجمعية خيرية، هي جمعية الحياة بالقرارة، ولاية غرداية. ولتحقيق هذه الأهداف صغت هذه الإشكالية: مدى مساهمة الوقف العلمي في منطقة ميزاب لتعميم التعليم القرآني وترسيخ المبادئ والقيم الدينية والخلقية، وكيفية ترقيته لخدمة الجانب العلمي بمفهوم أوسع.

وقد قسمت الورقة إلى أربعة مباحث مع مقدمة وخاتمة:

المبحث الأول: أهمية الوقف العلمي ومشروعيته

المبحث الثاني: نشأة وتطور الوقف العلمي بوادي بميزاب:

المبحث الثالث: جمعية الحياة : نشأتها ورسالتها وفروعها

المبحث الرابع: استنتاجات وتقييم

المبحث الأول: أهمية الوقف العلمي ومشروعيته

إن الوقف بصفة عامة يقصد به ابتغاء رضوان الله تعالى بتحييس أصل وتسييل منفعته لجهة خيرية على صفة الدوام مادام ذلك الأصل قائما، غير أن الوقف العلمي يتميز بالتخصيص الذي خصه الرسول الكريم حين أكد على حقيقة عقدية وهي انقطاع عمل الإنسان بمجرد أن تصعد روحه إلى بارئها، واستثنى من ذلك ثلاثة أمور تدخل الأجر على صاحبها ولو بعد موته إذ يقول: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".¹

فقد تسارع المؤمنون، من أجل زيادة حسناتهم وعدم انقطاع أعمالهم بعد الموت، بالوقف والصدقة الجارية وحسن تربية أبنائهم. والتنصيب على العلم في حديثه ﷺ دليل أهميته في الحياة الإنسانية، ثم أن العلم يشمل العملين الآخرين اللذان نص عليها حديث النبي؛ فالصدقة الجارية عامة تشمل العلم وغير العلم من الأعمال الخيرية، أما الولد الصالح، فلا يكون الولد صالحا إلا إذا

1- صحيح ابن حبان - كتاب الجنائز وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرا، فصل في الموت وما يتعلق به من راحة المؤمن - ذكر البيان بأن عموم هذه اللفظة انقطع عمله لم يرد بها حديث: 3070.

أخذ نصيباً من العلم. وبالتالي فمفهوم العلم يعمّ ويشمل الأعمال الخيرية الثلاثة المذكورة في الحديث الشريف، وإذا أخذنا بعين الاعتبار مكانة العلم في الإسلام الذي هو أساس عبادة الله ﷻ شهد الله أنه لا إلا هو الملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴿آل عمران:18﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام¹ كما أن أساس عمارة الدنيا والآخرة، تكون بالعلم، فقد ورد في الأثر: "من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معا فعليه بالعلم".

ولقد أدرك السلف الصالح القيمة الكبيرة للوقف العلمي، ودوره في حفظ العقل وتطوير العلوم، ومن ثم تحقيق رضا الله تعالى والفوز بقربه، وإبعاد الجهل عن النفس والأمة، فسارعوا إلى طلب العلم والوقف فيه، حيث كانوا يدرسون العلم بالمساجد أولاً، ثم انتقل ذلك إلى الأوقاف التابعة لها بدءاً من الزوايا ودور العلم، إلى الربط للكبار، والكتاتيب لتدريس الصغار ثم أخيراً إلى المدارس القرآنية في العصر الحديث.

مشروعية الوقف على العلم:

الوقف على العلم، وما يتعلق به من إنشاء المدارس، والمعاهد، والجامعات، والمكتبات، وصرف الرواتب على الطلبة والمعلمين مما لا خلاف فيه بين الفقهاء.

فالإنفاق على العلم من الإنفاق في سبيل الله وطرق الخير والبر، إذ هو من أعظم جهات البر، وقد جعل بعض العلماء الإنفاق على العلم يعدل الإنفاق على الجهاد في سبيل الله، لما روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"²، ولأن الجهاد جهادان: جهاد بالعلم والبيان، وكان هذا جهاده ﷺ في المرحلة المكية. وجهاد بالسيف والسنان، وهذا جهاده ﷺ في المرحلة المدنية مع الجهاد السابق.

الوقف العلمي والفرائض الكفائية: يعتبر الإسلام طلب العلم من الفروض الكفائية، فيقول الرسول ﷺ "طلب العلم فريضة على كل مسلم"³، فرصد الأموال من أجل تحقيق هذا المطلب يغدو عملاً مشروعاً، إذ اعتبر الفقهاء أن الأمة تكون آتمة إذا ضيعت فروض الكفائية ومنها العلم، الذي يلبي الكثير من حاجات المسلمين، مثل حاجتهم لعلم الطب والصيدلة من أجل علاج أمراضهم، وحاجتهم إلى علم الحساب لضبط شؤونهم المالية.⁴

1 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دمشق، دار الفيحاء، ط:1: سنة 1414/1994، ص: 1470

2 - سنن الترمذي، الجامع الصحيح، حديث: 2638

3 - سنن ابن ماجه، باب فضل العلماء، ج:1/ ص: 81

4 - الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين

الوقف العلمي والمقاصد الشرعية:1

إن أي جلب للمصالح الشرعية، يظل المقصد العام الذي يناط به فقه الوقف وأحكامه، وهذا متقرر من حيث المبدأ والمنطلق، وتنزيل مقولة المصالح على الوقف واضحة وجلية ومتمثلة في شواهد عديدة.

وأقرب علاقة الوقف العلمي بالكليات الخمس، وهي الكلية الأولى: حفظ الدين، ويمكن ضبط بعض الصور الجديدة لهذه الكلية المقاصدية والتي تعود في الأصل والأساس إلى حقيقة حفظ الدين، غير أنها تتسم بالجلدة والمعاصرة في مصطلحها، وهو ما يجعل تقريرها ضمن كلية حفظ الدين أمرا مهما جدا. من حيث تقوية هذه الكلية ومن حيث تنزيل الوقف عليها. ومن هذه الصور:

- إقامة المؤسسات المتخصصة في الدين الإسلامي (الكليات، المعاهد والجامعات).

- إقامة المراكز الإسلامية في بلاد غير المسلمين، والتي ستقوم بحفظ الدين في تلك البلاد، وبما تشكله من حلقة وصل مع العالم الإسلامي ومن جسر التواصل مع تاريخ الإسلام وحضارته.

- طباعة ونشر القرآن الكريم وترجمة معانيه.

- العناية بالمخطوطات المتصلة بحفظ الدين وتحقيقها ودراستها.

- قيام المحطات الفضائية والمواقع الإلكترونية المهمة بالعقيدة وترسيخ الإيمان وتقوية البعد الديني في قلوب المتابعين لهذه المحطات والمواقع.

وأول وقف في سبيل العلم والدعوة إلى الله هو وقف دار الأرقم²، فقد ذكرت كتب تاريخ السيرة النبوية وسيرة الصحابة في استعراضها لأوقاف النبي ﷺ وصحابته الكرام أن الأرقم بن أبي الأرقم تصدق بداره، بوثيقة نصها " هذا ما قضى الأرقم في ربه ما حاز الصفا: أنها محرمة بمكانها من الحرم لا تُباع ولا تُورث. شهد هشام بن العاص، وبقيت كذلك إلى زمن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي.

المبحث: الثاني : نشأة وتطور الوقف العلمي بوادي ميزاب

وادي ميزاب، يقع في جنوب الجزائر شمال الصحراء الكبرى في ناحية تسمى "الشبكة" وهي منطقة جبلية تتخللها أودية، ويبعد ميزاب عن مدينة الجزائر حوالي ستمائة كيلو متر. ويتكون ميزاب من سبع مدن؛ خمس منها متجاورة وهي العطف وبنورة ومليكة وبنو يزقن وغرداية وهي العاصمة والأم، واثنتان تبعدان عن المجموعة وهما بريان والقرارة³.

1- نور الدين مختار الخادمي، نظام الوقف، القاهرة، دار السلام، ط: 1، سنة، 1435 / 2014، ص: 55.

2- سعد المرصفي، أحاديث الوقف الإسلامي، الرياض، دار القبلة للنشر والتوزيع، ط: 1، س: 2005/1426.

3- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزائر. عالم المعرفة، ج 1، ط: 1، س: 2013، ص: 152.

مرت منطقة ميزاب - شأنها شأن المناطق الجنوبية الجزائرية- بمرحلة الجمود والجهل والصراعات والفتن خلال فترة العثمانيين حيث لم يصل نفوذهم إلى أعماق الصحراء، فبقي الولاء اسماً يدفع الإتاوة السنوية إلى مندوبي الباب العالي في العاصمة. فقد قيّد الله تعالى لهذا المجتمع عبر العصور، علماء ومصلحون، من أمثال الشيخ أطفيش الذي كرس حياته للعلم وتربية الأجيال ونشر القيم الدينية والخلقية ونبذ العصبية والجهل وقد أخذ المشعل من بعده أبنائه وتلاميذه الذين انتشروا عبر قرى وادي ميزاب مريين ومصلحين.

إن المدارس الخيرية الحرة الميزابية هي امتداد لنظام المحاضر "الكتاتيب" التي كانت موجودة في كل المساجد، وقد فكر المصلحون في إنشاء مدارس حرة في عهد الاستعمار لتعويض للتلاميذ في طرقي النهار ما لا يجدونه في المدارس الاستعمارية من العربية والدين وحفظ القرآن وترسيخ القيم الخلقية والاجتماعية في نفوس الناشئة، تأخذ ساعة في الصباح وساعتين في المساء، أي قبل دخول التلاميذ في المدرسة الحكومية وبعد خروجهم، وتلاميذها كلهم يزاوون التعليم الحكومي، وقد صارت تلك المدارس بعد الاستقلال الوطني تكمل التعليم الحكومي في باب الدين والعربية وحفظ كتاب الله تعالى¹.

أنشأ المصلحون جمعياتهم الخيرية الرسمية في آخر العشرينات وفي الثلاثينات وما بعدها، وقد كانوا قبل ذلك يعملون جماعات في الخفاء، فأروا أن يؤسسوا الجمعيات الخيرية الرسمية التي تعترف بها الحكومة وترعى حقوقها، فإن ذلك أرفع لصوتهم في الدعوة وأحوط لهم من كيد خصومهم الحكام وأذئاب الاستعمار.

أسباب إنشاء الجمعيات الخيرية:

1- ازدياد الوعي في الجمهور بفضل المصلحين وطلبة البعثات العلمية في تونس وطلبة معهد الحياة.
2- التوسع في النشاط والتنقل عبر قرى ميزاب والتل، يستدعى العمل العلني أفضل وأنجع من العمل في السر.

3- الإطار القانوني يحمي المؤسسة والأشخاص والمسؤوليات والمضائق.

وقد اعتنت هذه الجمعيات بكل ما قام به سلفهم المصلحون، فأنشأت المدارس العربية العصرية الجميلة الواسعة في كل مدينة من مدن ميزاب والمعاهد الثانوية لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، وأرسلت البعثات العلمية الكثيرة إلى تونس، واشترت لها دارين جميلتين في

1 - نفسه: 216

الأحياء التونسية¹

المبحث الثالث: جمعية الحياة: نشأتها ورسالتها وفروعها

مؤسسة خيرية علمية غير ربحية، تسمت بهذا الاسم "الحياة" في 16 جمادى الأولى 1356هـ / 24 جويلية 1937م وهو يوم انعقاد مجلسها التأسيسي، فوافق على قانونها الذي قدم إلى الحكومة فاعترفت به، وهي امتداد للجمعية الخيرية التي كان يرأسها الشيخ الحاج عمر العنق والشيخ الحاج عمر بن يحيى، وخلفهم في رئاستها وتسييرها الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر والشيخ أبو اليقظان، فرفعت لواء الإصلاح عالياً، وبلغت بجهادها نهضة القرارة نضجها، وأنشأت مدرسة الحياة وكفلت معهد الحياة، وبفضلها صارت القرارة عاصمة العلم والنهضة في الجنوب.² وكان للسيد خيزي عيسى بن عمارة الفضل بمساعيه ودهائه في حصول الجمعية على الاعتماد من الدوائر الرسمية.

رسالة الجمعية:

تعميم التعليم القرآني لكل الأبناء ذكورا وإناثا، وغرس المبادئ الدينية والخلقية في نفوس الناشئة، وتمكينهم من اللسان العربي الفصيح، وتفرغ طائفة منهم للتعليم الشرعي والدعوة إلى الله في معهد الحياة.

التعلم في مدارس الجمعية ومؤسساتها مجاني، بدون أي مقابل مادي، في كل مراحل التكوين، وكل مواردها تأتيها من تبرعات المحسنين وكل منشآتها ومراققتها وتجهيزاتها هي وقف في سبيل الله تعالى. وقد تعاقب على إدارة الجمعية رجال مخلصون، سبّلوا حياتهم من أجل أداء رسالتها وتحقيق أهدافها، بدءاً من الشيخ بيوض إلى الشيخ عدون، وبعد انتقاله إلى رحمة الله، اختارت الجمعية العامة نجلة: الأستاذ شريف بالحاج بن سعيد رئيساً، وفي الوقت الحالي يرأسها الأستاذ سليمان بوعصابة عمر بن بالحاج الذي قاد مسيرة تطوير الجمعية في هياكلها وأساليب تسييرها.

فروع الجمعية:

أولاً: مدرسة الحياة وفروعها:

أخذت جمعية الحياة على عاتقها أداء رسالتها التربوية فأنشأت مباشرة -بعد تأسيسها-، أول مدرسة عصرية في الضاحية الشرقية للقرارة، تضم فصولاً وقاعات، تشرف عليها إدارة ويقوم بها معلمون وفق منهج تربوي، بعد أن كان أبناء القرارة يدرسون في دور خاصة متفرقة في البلدة غير منتظمة في أوقاتها وبرامجها. وقد شهدت إقبالا ونجاحا وتأيد من طرف الأولياء لكونها تسد فراغا

1- محمد علي دبو، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزائر، عالم المعرفة، ط: 2013، ج: 2، ص: 234

2- نفسه، ص / 260

في الجانب الروحي والتكوين في اللغة العربية المفقودين في التعليم الرسمي الذي تقوم عليه الإدارة الفرنسية، كما أنها تحمي النشء من الانسلاخ من الهوية الوطنية والإسلامية. والدراسة بمدرسة الحياة هي تكميل وزيادة على التعليم الرسمي، يؤمها كل لأبناء البلدة في الفترة الصباحية بعد الفجر، وفي الفترة المسائية بعد الخروج من المدرسة الرسمية، فهي مخصصة لحفظ كتاب الله العزيز وإتقان اللغة العربية ومبادئ الدين والخلق والمحافظة على الهوية الإسلامية العربية الميزابية، وهي صنوة مدارس جمعية العلماء المسلمين في الأهداف والتكوين وبرامج الدراسة. بفضل الإقبال والزيادة في عدد التلاميذ، إذ لم يبق ولي إلا وسجل أبنائه في هذه المؤسسة، اضطرت الجمعية بعد ضيق المدرسة بأبنائها، في استعارة دور العشائر¹ واتخاذها غرنا وأقسامها تابعة للمدرسة، وخططت في تشييد مبنى جديد بالقرب من المبنى القديم، يستجيب للمتطلبات المستجدة في مكان أرحب وأوسع، فهب الجميع في المساهمة في إنجاز هذه المؤسسة، كل حسب طاقته هذا بهاله وإنفاقه السخي وذاك بالتنازل عن قطعة لأرض وهبها للجمعية وآخر بجهد العضلي وخبرته الفنية في البناء والتجهيز، ولم يزرغ فجر استقلال الجزائر، إلا والقرارة تحتفل بتدشين مدرستها القرآنية الجديدة في هندسة أنيقة ومظهر جميل يتباهى بها التلاميذ والأولياء على حد سواء.

لقد اتسعت مرافق المدرسة وفروعها مع التوسع العمراني للقرارة، فلا يعمر حي إلا ويشيد إلى، جانب المسجد فرع للمدرسة القرآنية الحرة التابعة للجمعية، وهذه فروع الجمعية ومرافقها:

الإحصاء الكلي للتلاميذ والتلميذات / السنة الدراسية 1435 / 1434 هـ 2014/2013 م

الفرع	عدد البنين	عدد البنات	قسم القرآن (بنون)	المجموع	
				الأفواج	التلاميذ
المدرسة المركزية	673	453	173	53	1317
الشيخ أبو اليقظان	372	304	62	30	738
الشيخ محمد علي دبوبز	316	232	56	24	604
الشيخ بالحاج	225	196	46	18	467
الحمد	128	78	37	15	243
الفرقان	182	119	41	15	342

المصدر: مطوية من إصدار جمعية الحياة بالقرارة

العشيرة أو القبيلة هي مجموعة أسر تنتمي لجد واحد، لها تاصيل شرعي، وقد فُعل نظام العشائر في وادي ميزاب وفي القرارة خاصة، فأصبحت له ديار يجتمع فيه أبناء العشيرة للتناصح وإقامة المناسبات خاصة الأعراس

الإطار المسير لمدارس جمعية الحياة:

إداريون	معلمون	معلّات	عمال	المجموع
12	107	50	10	179

ثانيا: معهد الحياة:

إن معهد الحياة أسسه الشيخ بيوض إبراهيم قبل نشأة جمعية الحياة وذلك في سنة 1925 وهو امتداد لمعهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى، وكان يسمى في بداية عهده، معهد الشباب، فهو يستقبل أبناء القرارة وأبناء ميزاب للدراسة في المرحلة الإعدادية والثانوية.

لكن بعد نشأة الجمعية تكفلت بالتمويل المادي لمعهد الحياة، إذ أصبحت مرخصة لها بجمع التبرعات واستقبال الأوقاف لرصدها في سبيل العلم وإعلاء كلمة الله.

يعتبر معهد الحياة من المؤسسات الرائدة في التعليم القرآني الشرعي والحامي للغة العربية والمبادئ الإسلامية ومقارعا لمخططات الاستعمار الفرنسي الساعية لطمس معالم الشخصية الجزائرية وهويتها الوطنية، فكان الأسبق في النشأة والعمل الميداني من مدارس جمعية العلماء ومعهدا الذي أسسه الشيخ ابن باديس، فأنشأ أجيالا من الرجال العاملين والعلماء والمصلحين وانبثوا في أنحاء الجزائر متناغمين ومتكاملين مع أبناء وتلاميذ ابن باديس، الذين نفخوا الروح الدينية والوطنية في جيل نوفمبر الذي قاد الجزائر نحو التحرر من الاستعمار الأجنبي.¹

وإلى جانب الرسالة الروحية والدينية لمعهد الحياة، فقد تخرج منه أساتذة ومعلمون ومربون منهم من التحق بسلك التدريس في المدارس الرسمية والقرآنية ومنهم من واصل دراسته العليا في تونس الخضراء ومعاهد وجامعات المشرق العربي؛ في مصر ودمشق وبغداد، قبل الاستقلال وبعده، فساهموا في بناء الجزائر كإطارات عليا وأساتذة في الجامعات والثانويات.

هذه بعض الأرقام عن طلبة المعهد:

إحصائيات الطلبة: 2013 / 2014

عدد الطلبة	382
عدد الطلبة	330
عدد الطلبة	5
المجموع العام	717

المصدر: مطوية صادرة عن إدارة الجمعية

1- انظر: محمد علي دبويز/ نهضة الجزائر، مرجع سابق، 234

معهد الحياة للبنات:

إذا كان معهد الحياة للذكور أسس في الربع الأول من القرن العشرين فإن معهد الحياة للبنات لم ير النور إلا في نهاية القرن العشرين، إذ اكتملت مراحلها في سنة 1995. فأهدافه تتلخص في تخريج ربات بيوت صالحات مؤهلات، معلمات في الأشغال المهنية النسوية، ومدرسات مرحلتي الابتدائي والمتوسط ومربيات في الأقسام التحضيرية ومحو الأمية وذوي الاحتياجات الخاصة، ومرشدات يشرفن على النشاط المجتمعي النسوي. قد بلغ المجموع العام للطالبات في مختلف الفروع في السنة الدراسية الماضية، 1250 طالبة¹

وفي سنة 2003 صار المعهد للبنات يسير بإدارة مستقلة وتشمل على: طور المتوسط والطور الثانوي وقسم القرآن وقسم النسيج.

ونأمل أن تتسع آفاق هذا القسم ليشمل التكوين العالي في الشريعة وعلوم التربية وعلم النفس.

ثالثاً: داخلية الحياة

ارتبط تاريخ نشأة داخلية الحياة بتاريخ معهد الحياة والنهضة الإصلاحية التي قادها الإمام الشيخ بيوض - رحمه الله -. فقد كان لبروز العلماء في وادي ميزاب، بعد فترة الجهل والجمود والانتكفاء على الذات، دور هام في حركة البعثات العلمية حول مدن قرى ميزاب، فكلما ظهر عالم في قصر أو مدينة إلا وأقبل عليه الطلبة للنهل من علمه والأخذ من حكمته، فلما سطع نجم العلماء في قصر² بني يسجن من أمثال الشيخ الثميني ومن بعده الشيخ أطفيش رحمه الله، تقاطر عليه الطلبة والتلاميذ من مختلف القرى للاستفادة من علمه وإشباع نهمهم المعرفي، فتشكلت بذلك موجات من البعثات العلمية، في بداية نهضة ميزاب.

وعندما سطع نجم الشيخ بيوض في القرارة وذاع صيته في آفاق ميزاب والجزائر بفضل حلقات العلم ودروسه القيمة في المسجد، أصبحت القرارة قبلة لطلاب العلم من ميزاب ومن خارج ميزاب إلى الآفاق، مما اقتضى توفير مأوى لهؤلاء الطلاب الوافدين، وكانوا في البداية مفرقين في ديار خاصة أو عند بعض المحسنين الذين يتكفلون بطلبة العلم، ومع تزايد أعدادهم فكر الشيخ بيوض في إقامة دار فسيحة تتوفر على كل مرافق الإيواء والسكن وتهيئة الجو العلمي وتكليف إدارة للتسيير، وبذلك تحولت إلى مؤسسة وفاقية تسمى: "دار البعثات العلمية"، تضم كل الطلبة الذين يزاولون دراستهم في مدرسة الحياة أو في معهد الحياة

1- مطوية جمعية الحياة/ مطوية من إصدار جمعية الحياة، لجنة الإعلام والتنشيط، سنة: 2014:

2- القصر: يعني القرية أو البلدة.

رابعاً: مكتبة الحياة:¹

إن الكتاب هو مادة العلم ووسيلته، فلا يمكن إقامة نهضة علمية بدونه، لذا فكر الشيخ بيوض عند تأسيسه لمعهد الحياة إلى إقامة مكتبة كانت النواة الأولى لمكتبة الحياة عند دار الشيخ بيوض، وتكونت النواة الأولى من كتب الشيخ نفسه، مما يهدى له في مختلف المناسبات، ومن طلبات بعثات تونس، ومن تركت بعض المشايخ وطلبة العلم، ولما انتقلت حلقات التدريس سنة 1941 من دار الشيخ إلى المسجد، نقل معه أغلب كتبه.

تحتوي المكتبة على ما يربو عشرة آلاف عنوان في مختلف العلوم والفنون، تمت فهرستها ورقمتها وفق نظام المكتبات العصرية، كما تحوي المكتبة أجنحة أخرى للمخطوطات والدوريات والرسائل الجامعية ومصالحة للأشرطة السمعية، والسمعية البصرية، والأقراص المضغوطة.
آفاق المكتبة:

- استقلال المكتبة بمبنى وفق مواصفات المكتبات العصرية.
- ضم المكتبات الخاصة الموصي بها واستغلالها في لأقرب الآجال.
- تخصيص جناح للباحثين بكامل الموافق، وتوفير جو الإقامة للوافدين منهم.
- فتح أجنحة خاصة للطفل والنساء للمطالعة والبحث العلمي.
- إنشاء مصلحة لترميم المخطوطات وتجليدها.
- وهذه المرافق والفضاءات تحتاج إلى تمويل سخي، وهو ما تقوم به الجمعية وتخطط لها.
- خامساً: مستثمرة الحياة والتنوع في مصادر التمويل:²

بناء على التوسع في هياكل المؤسسات التربوية للجمعية ولتزايد عدد روادها في كل سنة دراسية، وللزيادة المتسارعة في الأعباء المالية، فكرت الجمعية في تنويع مصادرها التمويلية مع الإبقاء على المصدر الأساس وهو التبرعات لكون المؤسسة ذات طبيعة وقفية، ومن بين المصادر الثانوية التي تخطط لها الجمعية:³

أ- الاستشارة الاقتصادي.

ب- أسهم الوقف.

- 1- مطوية جمعية الحياة، مرجع سابق.
- 2- محمد صالح حمدي/التمويل الذاتي للأوقاف، جمعية الحياة التربوية نموذجاً، بحث منشور، مجلة الحياة، دورية فكرية يصدرها معهد الحياة وجمعية التراث، القرارة، العدد العشرون، رمضان 1437، جويلية 2016، ص: 121.
- 3- مقابلة مع الأستاذ: ويرو الحاج يحي أحمد بن صالح/ رئيس المصلحة المالية بالجمعية.

أولاً: الاستثمار الاقتصادي

إن جمعية الحياة منذ نشأتها وهي تقوم بتمويل أعباء نفقات تسيير مؤسساتها من التبرع والوقف مع جزء يسير من أموال الزكاة، لكن مع تزايد عبء النفقات في العقود الأخيرة والتوسع في الهياكل وتضاعف عدد التلاميذ، أصبح التفكير جدياً في تنويع مصادر التمويل من أجل تعزيز وتقوية المصادر الرئيسية لضمان سير وديمومة نشاطها وتحقيق أهدافها التربوية والاجتماعية. فاختارت الاستثمار في المجال الفلاحي، غير أن أهداف الجمعية لا تقتصر على الجانب المادي التمويل فحسب، فمن أهدافها أيضاً¹:

- أ- تثبيت روح الوحدة والتضامن بين أفراد الأمة بتنظيم عمليات تطوعية.
 - ب- إقامة نشاطات رياضية وترفيهية في المستثمرة لأبناء مؤسسات الجمعية وإطاراتها.
 - ج - توفير مناصب شغل دائمة وموسمية.
 - د- إتاحة الفرصة للطلبة والباحثين في الميدان الفلاحي لتطبيق تجاربهم.
 - هـ - المساهمة في تطوير الإنتاج الفلاحي المحلي، وتشجيع المستثمرين في المنطقة.
 - ومن أسباب اللجوء إلى اختيار أسلوب الاستثمار الفلاحي عدة اعتبارات، منها:
 - الجانب التعبدي في الفلاحة والزراعة وعمارة الأرض.
 - التحفيز والدعم من طرف سلطات الدولة.
 - تعلق أهل المنطقة بالأرض وخدمتها وعمارتها.
- البطاقة الفنية للمستثمرة: تقع هذه المستثمرة بمنطقة "الدرين" على بعد عشرة كيلو شرق بلدية القرارة، تربع على مساحة إجمالية تزيد عن مائة هكتار، قابلة للتوسع على تربة رملية ذات مناخ صحراوي يتميز بالجفاف والزوابع الرملية.
- بعد صدور قرار الامتياز من طرف سلطات الدولة الجزائرية وتفجير العين، شكّلت الجمعية لجنة فنية فلاحية لتهيئة الأرض ومد شبكة الري والشروع في غرس النخيل وأشجار الزيتون، وهي النوعية التي تتلاءم مع الجو الصحراوي الحار والجاف.
- تمت العملية على مراحل ابتداء من سنة 2004 إلى أن وصلت 2014 أي بعد عشر سنوات، إلى استصلاح أغلب المساحة بغرس:
- 11200 من أشجار النخيل (دقلة بيضاء، دقلة نور، غرس، تقيزوين، عولة، دكار)

1- مطوية من إصدار جمعية الحياة، مرجع سابق، سنة: 2014.

7000 من أشجار الزيتون (سَمَلال، سِيَقَواز).

الإنتاج: لقد وصلت المستثمرة إلى مرحلة الإنتاج بفضل الجهود المبذولة، وحملات التطوع الموسمية وكانت إيراداته في السنوات الأولى توجه لتغطية تكاليف الاستثمار ومصارف تهيئة الأرض ومد القنوات، وقد وصل الإنتاج إلى عتبة المردودية في السنة الماضية، مما يعني الوصول إلى تحقيق الأهداف التمويلية في أفق موسم الحصاد القادم.

ثانياً: الأسهم الوقفية:

هو أسلوب هام من أساليب التمويل، ومن خصائصه أنه لا يكلف الجمعية أعباء التسيير والمتابعة، يكفي أن يقتنع أرباب الأعمال أن يوقفوا جزءاً من أسهم رأسمالهم لصالح الوقف، فتصبح تلك الأسهم تدر إيرادات منتظمة سنوياً، وقد بدأت التجربة تؤتي أكلها. أملاً أن يقتنع أرباب المال بهذا الأسلوب وتعم التجربة.

المبحث الرابع: استنتاجات وتقييم

إن الوقف العلمي من أهم مكونات الأوقاف الإسلامية على امتداد الحضارة الإسلامية، فهو الضامن لاستمرارية عطاءها، على الرغم من النكسات السياسية التي مُنيت بها الأمة، وتأصيله الشرعي تؤكد توجيهاً الرسول والفقهاء من بعده، مع اختلاف في تفسير المفهوم العلمي بين مضيّق ومقتصر على العلم الديني وموسع ليشمل كل علوم الحياة النافعة.

ولقد أدرك الغرب أهمية الوقف العلمي فتسارعت المؤسسات الاقتصادية الكبرى إلى إنشاء الجامعات ومراكز البحث وقفية وإعطائه الاستقلالية والإدارة المنظمة، فظهرت فعاليته ونتائجه في أرض الواقع.¹

وإذا أخذنا بالتجربة الإسلامية المعاصرة وقارناها بالمؤسسة الغربية نجدها قاصرة مما لا يدع مجالاً للمقارنة على الرغم من توفر عناصر قوية في التجربة الإسلامية، استخلصنا هذه الملاحظات: أ- التنوع في مجالات الإنفاق في المؤسسة الوقفية الغربية لتشمل المجالات العلمية والصحية والتكنولوجية والبيئية، بينما تقتصر المؤسسة الوقفية الإسلامية في أغلبها على الجانب الديني والاجتماعي.

ب- الحجم الكبير لموازنات المؤسسة الغربية مما سمح لها بالتوسع لتشمل أنشطتها أغلب دول العالم، ووفق إحصائية من بين ثماني وعشرين مؤسسة وقفية عالمية كبيرة، لا توجد إلا مؤسسة

1- انظر على سبيل المثال: أسامة عمر الأشقر، تطوير المؤسسة الوقفية الإسلامية، في ضوء تجربة الغرب ص: 37

واحدة إسلامية عربية والبقية كلها توجد في المجتمع الغربي.

ج- الدعم الحكومي للمؤسسة الوقفية، على الرغم من استقلالية المؤسسة الوقفية الغربية إلا أنها تجد الدعم الحكومي من الناحية القانونية والتشريعية وفي دخولها في الإستراتيجية العامة للدولة. بينما تخضع المؤسسة الوقفية في البلاد الإسلامية لوصاية الدولة في التسيير والإدارة. وما يلاحظ على تجارب الجزائر في مجال الوقف العلمي، مع النقص في الإحصائيات، أن أغلب الأوقاف تركز للعلم بالمفهوم الضيق، بإنشاء المساجد وتوفير التعليم القرآني والديني، مع أهميته وأولويته، على حساب الأوقاف في مجال البحث العلمي وتطوير الإنتاج. أوقاف جمعية الحياة:

1- إن أوقاف جمعية الحياة هي أوقاف خاصة بالمفهوم القانوني، وهي تتمتع بالاستقلالية المالية والإدارية، مما جعلها تنشط بحرية في إطار قانون الدولة الجزائرية، لكنها في حاجة إلى دعم الدولة من الجانب المعنوي والاستراتيجي أكثر منه من الجانب المادي، يعني أن يغدو نشاطها ومساهماتها ضمن المجهود الوطني العام وتلقي من الدعم غير المباشر، بالخفيف على العبء الضريبي على المحسنين تشجيعاً لهم وتحفيزاً على العمل الخيري. وهو ما تقوم به الحكومات الغربية.

2- الاستقلالية الإدارية والمالية: إن إدارة جمعية الحياة كانت تسيير من طرف المشايخ والمؤسسين لها لعقود عديدة، وهذا أمر طبيعي حينما كانت مؤسسة ذات طبيعة مانحة تجمع تبرعات ووقفية وتنفقها على مختلف مرافق التعليم من تجهيزات وأجور، غير أنه مع تطور طبيعة الجمعية وانتقالها إلى مؤسسة ذات طبيعة تشغيلية تقوم بالإشراف على الاستثمار، فإن الأمر يقتضي الفصل ما بين الجهاز المشرف والمتكون من الأمناء وما بين الجهاز الإداري المشرف على الأنشطة التشغيلية للمؤسسة. ونلاحظ من تطورات الجمعية الاتجاه الصحيح في هذا المنحى.

3- طبيعة نشاط الجمعية: إذا أسقطنا الملاحظات السابقة على تجربة ووقفية جمعية الحياة، ألفيناها لا تختلف كثيراً، فقد صنفنا أنشطتها ضمن الوقف العلمي، لكن بالمفهوم الضيق، وهو الأساس الطبيعي لنشاطها واهتماماتها، لأن سياقها التاريخي والواقع الذي نشأت حوله تمي عليها ذلك. لكن يمكن أن تطور أهدافها وتوسع من رسالتها العلمية، بالتكفل بالبحث العلمي في مجال العلوم الإسلامية والتربوية والعلوم الإنسانية بصفة عامة. وذلك من خلال.

- توسيع أنشطة المكتبة، لأن نشاطها الحالي لا يرقى إلى مستوى الطموحات والرصيد التاريخي للجمعية ولمعهد الحياة.

- إنشاء مراكز بحث في الجانب التاريخي والوثائقي والاهتمام بالمخطوطات والتراث العلمي.

- إنشاء كلية معهد الحياة للتكوين العالي في مجال العلوم الإسلامية والإنسانية وتشجيع البحث العلمي وإنشاء مجلات علمية وعقد ملتقيات علمية. فقد لاحظنا تواضع عدد طلبة التخصص الشرعي، الذي لا يتناسب مع حجم المعهد في المرحلة الإعدادية والثانوية ولا مع طموحات القائمين على المشروع.

التوصيات: توصي هذه الورقة:

- توجيه المحسنين والواقفين نحو الوقف العلمي بالتحسيس بأهميته وأولويته وفضله في الدنيا والآخرة.

- على السلطات إعطاء أهمية للوقف العلمي بالتحفيز له ومنح امتيازات قانونية وضريبية للوقف في البحث العلمي بصفة خاصة

توجيه الباحثين للاهتمام بتاريخ الوقف العلمي في الحضارة الإسلامية والاستفادة من التجربة الرائدة الغربية في هذا المجال.

والحمد لله أولا وأخيرا وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

- المراجع المعتمدة:

- 1- الحياة، مجلة فكرية يصدرها معهد الحياة وجمعية التراث، القرارة ولاية غرداية، الأعداد: 20،
- 2- محمد على ديبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزائر عالم المعرفة، ط: 1، سنة: 2013 الجزء الأول والجزء الثاني
- 3- سعد المرصفي، أحاديث الوقف الإسلامي، الرياض، دار القبلة للنشر والتوزيع، ط: 1، س: 2005/1426
- 4- نور الدين مختار الخادمي، نظام الوقف، القاهرة، دار السلام، ط: 1، سنة، 2014 / 1435،
- 5- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دمشق، دار الفيحاء، ط: 1، سنة 1994/1414
- 6- أسامة عمر الأشقر، تطوير المؤسسة الوقفية الإسلامية في ضوء التجربة الخيرية الغربية، عمان، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط: 1 س: 2012 / 1433
- 7- مقابلة مع الأستاذ: ويرو الحاج يحي أحمد بن صالح، بمكتبه، القرارة يوم: 25 أوت 2016.